جامعة عمر المختار
مجلة كلية التربية- البيضاء
المجلد الأول- العدد الثاني الصفحات 47-62 2017

أَدَبُ الرُّدُودِ

بحثٌ في لونٍ لطيف من كلامِ العَرَب نثرًا وشعرا

DOI: https://doi.org/10.54172/0bpfyn80

أ. عبد الباسط صالح يونس الجياش
كلية التربية / البيضاء
الدرجة العلمية : محاضر
التخصص الدقيق : أدب عربي قديم (عباسي)
البريد الالكتروني :abdalbaset.algiyash@omu.edu.ly

ملخص البحث

يهدف البحث إلى دراسة جانب مهم من جوانب الكلم العربي, والحديث عن صيغة أدبية تستحق اهتماما أكثر من حيث كونها أسلوبا مستقلا, ونمطا جديرا بالدراسة وذلك في الفترة العربية القديمة من العصر الجاهلي إلى نهاية القرن الرابع الهجري.والمتتبع للتاريخ العربي يجد الكثير من فن الرد الأدبي شعرا ونثرا, ويدرك مدى انتشار طريقته, وجمالية صوغه وقوة تأثيره. هذا النسق ينبغي تحليله ودراسة العلاقة بين أدب الرد وبقية الأغراض الأخرى, يقوم على حجز مكان خاص بالرد الأدبي السريع, وفصله عن الرد المعدّ والحكمة المدروسة , ويسعى للتفريق بين الجيد والرديء في هذه الأقوال, ودراسة مدى فاعليتها في الإبانة, في ظل عدد غير قليل من وسائل الإيضاح والإمتاع والمجادلة.

و قد استخدم المنهج التحليلي لتجاوبه مع موضوع البحث، حيث أن هذا النوع يستحق الإفراد والمتابعة, ويمكن من خلاله منح أصحابه مكانة خاصة؛ لصعوبة هذا الفن من حيث التكثيف الشديد للألفاظ, والسرعة في ردة الفعل المناسبة. وخلصت الدراسة إلى أن أدب الرد يعد رافدا مهما من روافد الأدب العربي وله تأثير كبير في تشكيل العقل العربي من الناحية البلاغية.

Abstruct

The research aims at studying an important aspect of the Arabic language and talking about literary form that deserves more attention as it is an independent method and a worthy pattern of study in the ancient Arabic period from the pre-Islamic era to the end of the fourth century AH. The follower of Arab history finds much literary art Poetry and

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

prose, and realizes the extent of the spread of his method, and the beauty of its formulation and the strength of its impact. This format should be analyzed and studied the relationship between the literature of the response and the rest of the other purposes, also seeks to differentiate between the good and bad in these statements, besides study the effectiveness of the statement, in light of a number of means of clarification and pleasure and argument. The analytical method was used to respond to the subject of research. This type deserves the individuals and pursue, and through which to grant the owners a special place; the difficulty of this art in terms of intensification of words, and speed in the appropriate reaction. The study concluded that the literature of response is an important extension of the tributaries of Arabic literature and has a great influence in the formation of the Arab mind rhetorically.

المقدمة

كأي فن كلامي يأتي الرد الأدبي معبرا عن البيان والبلاغة العربية, ويحدد خصائص القول العربي من جانب الرد والمحاورة, وإن كان هذا الفن قد ورد كثيرا في روايات العرب إلا أنه جاء عابرا وفي جانب التسلية والمؤانسة, من دون تحديد أصوله ومساربه وأنواعه, وربما كان لفن الرد أكثر من جانب, فنجد مثلا الرد السريع المرتجل, والرد المتأني, والرد المصنوع والرد الصادم والغاضب وغيرها.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في توضيح الرد الأدبي وتأصيل معناه ومكانته بين أنواع الردود المطولة, والبحث عن تأكيد خصوصية هذا الفن واستقلاليته عن فنون القول المختلفة.

هدف البحث وأهميته:

يهدف إلى الاهتمام بالرد الأدبي ومنحه القيمة التي يستحقها والدعوة إلى دراسته على نطاق فني وتحليل ألفاظه وشرح غاياته, هذه الدراسة تدعو كل باحث ومتعلم إلى تطبيق الإرث الجمالي للردود الأدبية, وتحث الدارسين على بلاغة التعبير عن طريق الشواهد الجاهزة.

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

الدراسات السابقة :

ذكرت الردود العربية في مصادر كثيرة ومراجع متعددة يأتي ذكرها في السياق, وحوتها, وكانت في الغالب على هيأة روايات, وحددت لها أبواب خاصة, لكنها كانت مجرد حكايات للمرح وروايات للتناقل .

أما في العصر الحديث فقد تناولت عدة دراسات وبحوث جانبا مهما من استقصاء الشواهد وتحقيق الأمثلة على هذا الفن .

هذه الجهود يجب ذكرها والإشادة بمؤلفيها , والبناء عليها في تحديد وجهة البحث الحقيقية , ومراد الدراسة من حيث كونها تنشد الجمال في الصنعة , ومجابهة الوقت الضيق , وصولا إلى الجواب المسكت , ومن هذه الدراسات :

1. بحث في بلاغة الأجوبة المسكتة " الأسلوب الحكيم نموذجا " للدكتورة منيرة محمد فاعور – من منشورات كلية الآداب جامعة دمشق – المجلد 30 – العدد 4.3 – لسنة 2004 , وكانت تهدف إلى إغناء الأسلوب الحكيم بالأمثلة المناسبة , ودرست في (22 صفحة) الجانب البلاغي الذي كان حسب وصفها " من أبرز الصعوبات التي واجهت البحث؛ إذا لم أقع على دراسة علمية عنت بتناول الجانب الفني التطبيقي لهذا الأسلوب يمكن الاستئناس به والاتكاء عليه , وكل ما جاء في هذا البحث و جهد شخصي وعمل فردي " وهو جهد قيم, وفيه من الفائدة الكثير لهذا البحث.
2. كتاب: (الأجوبة المسكتة) لابن أبي عون إبراهيم بن محمد بن أحمد المتوفى عام 322 هـ 934- م تحقيق د. مي أحمد يوسف – من منشورات عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – القاهرة – الطبعة الأولى 1996 , ويدل الكتاب حسب وصف المحققة في مقدمة التحقيق (صفحة 37) على انه " مجموعة من الأجوبة الحاذقة الذكية يرد بها المسؤول على من سأله ليفحمه بالجواب المسكت " أو هو كما وصفه صاحبه إبراهيم بن محمد (في صفحة 5 من الكتاب) بقوله : " أن أثبت لك – أبقاك الله – من الجوابات القاطعة للابتداءات, والابتداءات المفحمة عن الجوابات ما فيه لك كفاية , ومتعة وتأدب ورياضة , وجعلت لذلك أبوابا لئلا يختلط الجد فيه بالهزل والواعظ بالمضحك والركين بالركيك" والكتاب على الرغم من تخصصه في جانب الإجابة المسكتة دون غيرها إلا أنه يدخل في إطار القصص والأخبار والنوادر في أغراض متنوعة ومشتتة , يغلب عليها الظرف والأسلوب الرشيق .

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

3. كتاب (الأجوبة المسكتة) لإبراهيم عبد الله بن إبراهيم الحازمي , مشورات دار الشريف – الرياض , الخطاب يحتوي على مجادلات ومحاورات ومصارعة أفكار مقنعة وممتعة , تلقن الناس الحجة البالغة , وتعلمهم الحكمة وفصل الخطاب .
4. كتاب (الأجوبة المسكتة في أدبنا العربي) لمحمد إبراهيم سليم , لم أقف عليه .
5. كتاب (الأجوبة المسكتة الواردة عن العرب والفلاسفة) لأحمد أفندي صابر – مطبعة الواعظ – القاهرة 1905م وله كتاب مشابه وهو (الأجوبة المسكتة الواردة على لسان القرآن والأدب والحكمة)
6. كتاب (إحكام صنعة الكلام) لأبي القاسم محمد الكلاعي , تحقيق محمد رضوان الداية – ط 1- بيروت – 1966م
7. كتاب (الأسلوب الحكيم , دراسة بلاغية تحليلية) مع تحقيق رسالة في بيان الأسلوب الحكيم , لابن كمال باشا ودراستها .
8. كتاب (عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة) نسخة حجرية لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل – ط 1 المطبعة الإعلامية – مصر – 1302هـ

ويمكن الإشارة أيضا إلى المصادر التي ذكرت الردود باعتبارها روايات من دون الخوض في تحليل أو تصنيف, وهي :

(الأدب والمروءة, لصالح اللخمي, البخلاء للخطيب البغدادي , الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي بلاغات النساء وطرائف كلامهن, لأبي الفضل أحمد ابن طيفور, المجتبى, لأبي بكر محمّد بن الحسن ابن دريد المستطرف في كل فن مستطرف, لشهاب الدين أحمد الأبشهي)

الفرضية

تم وضع فرضية إدراج فن الرد باعتباره غرضا أدبيا مستقلا, ومعرفة إمكانية منحه هذا الدور, ويناقش تناوله كقصص ممتعة, أو الاكتفاء بروايته من دون تحليله.

المنهج المتبع:

اتبع في هذه الدراسة منهجا تحليليا يحاول شرح قيمة كل رد, ويفرق بين جماليات القول وحسنها, ومدى تأثيرها على السامعين, ومقدار نجاحها في خلق البرهان وصياغة الرد.

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

جامعة عمر المختار
مجلة كلية التربية- البيضاء
المجلد الأول- العدد الثاني الصفحات 47-62 2017

التمهيد

ماهية فن الرد في كلام العرب:

الرد في الكلام في مجمله قد يأتي بقسوة لسان لاذع، أو بحدة عقل متقد, دون حساب للأثر الناتج عنه ؛ لكن الرد الأدبي هو أكبر من ذلك بكثير, فهو قطعة أدبية كاملة بكل مقاييسها, تنشد الإلهام والبيان في أقصر صورة, وترجو الإمتاع والمؤانسة في لحظة سريعة، وتحدد الوجهة والهدف، وتخلق الدهشة في الوجدان مع سرعة بديهة وعقل حاضر.

والأدب عند (**عائشة بنت الشاطئ ,1970, ص 77**)" هو فن العرب الأوحد ووسيلتهم التي لا نعرف أنهم يملكون سواها للتعبير عن وجدانهم.

وهي على ما تحمله من التكثيف الصعب, والتحول عن ربقة الشرح والتأويل، تتَّكل على رسم بياني بليغ, يخلق الجمالية في جملة القول, ويحفظ التمازج الفريد مع القول السابق أو الجُمل المحكية قبله.

هذه الجمل تتلقى البلاغ في جانب وترد من آخر, تستمد قوتها من قوة التساؤل, وتحول المدافعة نحو الغريم وتشده بوثاق الردّ المفحم الموزون الذي لا يحتمل المجادلة, يقول (**أبو منصور الثعالبي2001م 5.1**)وإذا كانت هناك مواقف يحتاج فيها إلى إشباع المعنى، وتوكيده، وتكريره، حيث يحتاج البليغ إلى الإطالة والإسهاب، فإن هناك مواقف يحتاج فيها إلى الاختصار والإيجاز, وأكثر ما عليه الناس في البلاغة أنها: " الاختصار، وتقريب المعنى بالألفاظ القصار", وقد سئل بعضهم عن البلاغة فقال :هي لمحة دالة, وهذا مذهب العرب، وعادتهم في العبارة، فإنهم يشيرون إلى المعاني بأوحى إشارة! ويستحبون أن تكون الألفاظ أقلّ من المعاني في المقدار والكثرة.

وقد يأتي الرد بفائدة عظيمة وتدفع الكثير من الناس إلى الاقتناع بفكرة عامة فيروى لنا(**ابن هشام في السير(ب.ت) 212.4**) أن الأقرع بن حابس من أشراف بني تميم حين وفد على النبي ﷺ انتدب النبي , ثابت بن قيس الخزرجي ليرد على خطيب بني تميم وانتدب حسان ابن ثابت ليرد على شاعرهم , فالتفت الأقرع بن حابس إلى أصحابه وقال : " **وأبي, إن هذا الرجل لمؤتى له , لخطيبه أخطب من خطيبنا , ولشاعره أشعر من شاعرنا , ولأصواتهم أحلى من أصواتنا** "

هي محاولة لإظهار هذا القول البلاغي في جمل الرد ونعرِّفه للناس, ونبين مكانته بين سائر الفنون, فلا نرى أن شيئا ينقصه ليكون غرضا أدبيا, فهو مليء بعناصر الفن الأدبي رغم صغر مساحته, ولا يحتاج لتوضيح مقصده في الإبلاغ والإفهام والإمتاع.

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

الرد الأدبي والحكمة:

يكثر الخلط بين الرد الأدبي والحكمة المعتبرة, لما بينهما من التوافق في الشكل, والتلاقي في غاية الإبلاغ, مع اشتمالهما على الوعظ وإدراك الصواب, واستخراج القيمة من جوف الكلام.

فالكلام عند(عبدالكريم القيرواني, **1933**م **12.1**)" **أصله منثور، ثم تعقبت العرب ذلك واحتاجت إلى الغناء بأفعالها وذكر سابقيها، ووقائعها، وتضمين مآثرها، إذ كان المنطق عندهم هو المؤدي عن عقولهم، وألسنتهم خدم أفئدتهم، والمبينة لحكمهم.**

وهو بهذا يكون جزءا فاخرا من مفردات العربية شعرا ونثرا , سواء كان عن غضب وفرح أو خوف ورغبة وسواء كان معدا أم مرتجلا, فإن أصاب الرد هدفه فلا شيء يماثله, وإن أفحم وأسكت كان رافدا لما بعده, وإن حزم المريد أمره فلا يعدم البيان وسحر اللسان.

والحكمة عند (صالح اللخمي **1992**م , **1**/ **22**)" **تزيد في المنطق وتذكى الذهن وتعين على الإبلاغ ويتحمل بها العامل ويتقلب فيه كيف شاء ويختار منه ما يشاء ,فيتأيّد به الضعيف ويزداد به الأدب قوة في منطقه وبلاغة في كتبه فيكون في حفظه منفعة** " وقالوا: "**الصمت منام العقل، والنطق يقظته، والمرء مخبوء تحت لسانه حتى ينطق, وقالوا ترك الحركة للسان عقلة، وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره. وأجمعوا على استحسان الكلام مع الصواب, كما اجمعوا على كراهة الكلام مع الإسهاب.**

وأدب الردود هذا عميق الأثر صعب التأليف؛ لذا تتحول جلّ مفرداته إلى أحكام متواترة, وآثار متوارثة وقصص ومواعظ مروية , يقول (أبو حيان التوحيدي ,**1942**م **135.2**): " **وأحسن الكلام ما رق لفظه ولطف معناه, وقامت صورته بين نظم كأنه نثر، ونثر كأنه نظم** , وهو يرى " **أن الشعر لا يختص وحده بالموسيقى والخيال، بل هما قدر مشترك بين الشعر والنثر الفني، والفرق بين النوعين من الكلام نسبي أما الجوهر فواحد"**

ومما يميز الفن النثري من جهة الردود الأدبية هي سماتها الأسلوبية التي تتجسد في جملها القصيرة, وتخير الكلمات بدقة وعناية, واستخدام الخيال من محسنات واستعارات وجناس, والتنوع والمزاوجة في الكلمات ذات الجرس الموسيقي التي تجتذب الأذهان, والتخلص من السجع والتمسك بالنثر المرسل, والاهتمام بالفكرة إلى جانب العبارة.

والرد يفعل ذلك أيضا , مع شدة قصره وسرعة قوله ودهشة موافقته وعظيم توفيقه , والأفئدة , وكما ورد عند(صالح اللخمي, **1992**م, **1 – 12**) من أن " **مزارع الألسن منها ما ينبت ما زُرع فيه من حسن ولا ينبت ما سمح، (...)وإن من المنطق ما هو أشد من الحجر وأحد من الإبر".**

ومن فن الكلام تتضح قيمة الكلمة المفردة في البيان والإيضاح, وقدرة اللفظة وحجم تعبيرها, " فمن نواقض المروءة في (صالح اللخمي, **1992**م, **1 – 37**)**كثرة الكلام,وإذا قيل لك أي شيء أطول؟فقل: الكلام,وإذا قيل لك أي**

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

شيء أقصر؟ فقل: الكلمة؛لأن الكلمة الواحدة قد تكون جوابًا لألف كلمة، وقد يكون جوابها ألف كلمة وأكثر.

وقد يدخل في هذا ما يسمى الرد المقصود لغاية, وهو جميل لما له من حسن الإعداد لمخاطبة الآخر والرد عليه؛ لكنه قد لا يرقى إلى روح الردود المعتمدة على اللحظة وصنع الحل المباشر؛ وإبراز روعة العقل العامر واللسان الفصيح, وحسن التخلص.

مثال ذلك ما يرويه (أبو حيان التوحيدي,**1942**, **41.1**)قال: كتب يحيى بن زياد إلى عبد الله بن المقفع يلتمس معاقدة الإخاء والاجتماع على المخالصة والصفاء، فلما لم يجبه كتب إليه يعتب، فكتب له عبد الله: " **إن الإخاء رق، وكرهت أن أملكك رقي قبل أن أعرف حسن ملكتك**".

والعقل السليم هو المسيّر لكل ذلك, وهو ما يملي الكلمة على اللسان فيجري بها على مقدارها, وقد يكون هذا سببا كافيا لـ (عبد الله بن المقفع, ب.ت, (**1– 23**)**ليقول: وَإِنمَا إِحيَاء العَقلِ الذِي يَتم بِهِ وَيَستَحكِم خصَالا سَبع: الإِيثَار بِالمَحبةِ، وَالمبَالَغة فِي الطلَبِ، وَالتثبت فِي الاختِيَارِ، وَالاعتقَاد لِلخيرِ، وَحسنُ الوَعي، وَالتعَهدُ لِما اختِيرَ وَاعتُقِدَ، وَوَضعُ ذَلكَ مَوضِعَهُ قولا وَعَمل.**

وقد قيل لحكيم :" **ما الجودُ ؟ قال : بَذلُ مُقِلّ, فقيل له: فما البخلُ ؟ فقال: أفّ, وأدار وجهه, فقيل له: لمْ تُجِبْنا, فقال: قدْ أجبتُ**"هنا يختلط أسلوب الرد بحكمة الرجل, ويتحول الرد إلى حكمة وعبرة.

وقد روي أنه جاء رجلٌ إلى الإمام مالك يسأله عنْ مسألة,فقال الإمامُ: لا أدرى,فقال الرجلُ متعجبا: قطعتُ إليك الفيافي, ثم تقولُ لا أدرى!فرد مالك :" **وما يُضيرك؟ اذهبْ إلى بلدك وقل لهم: أتيتُ مالكا فقال:لا أدري** "ونقل(التوحيدي,**1942**م, **55/1**) عن ابن مناذر قال: "كنت أمشي مع الخليل فانقطع شسع نعلي فخلع نعله فقلت له: ما تصنع؟ قال: **أواسيك بالحفاء**".

والجواب على مباشرته يعطي المجال للرد المقنع والسهل, والتنبيه إلى أن الوضوح والبيان من أهم شرائط التبليغ, وأن الحرص على اختلاق ردّ قد يفسد النصّ ويقلل الكلام.

ولعل من أبدع الردود بلاغة وأكثرها أدبا وأعظمها قدرة على البيان ,ما رواه(الذهبي, **1996**,**–1–98**) عن مغيرة عن أبي رزين، قال: " **قيل للعباس بن عبد المطلب:أنت أكبر أم النبي ﷺ؟ قال: هو أكبر وأنا ولدت قبله** " وقد كان قبله بثلاث سنين.

هذا الردود معيار أصيل لهذا الفن, ودلالة على أنها ليست ردا عابرا يقال للإجابة والتخلص, بل هو توجه أدبي يدعو إلى التمعن والتدبر واستخلاص الكثير من القواعد والأصول في المعاملة والفكر.

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

وللشعراء ردود نثرية غاية في الحكمة والفائدة وأبلغ في الرد على المستهزئين المعاندين, فقد روي عن المتنبي أنه تعرض لحالة من المهاجمة اللفظية على حين غرة, وتوجب عليه الرد السريع الذي لا يقبل تأجيلا, فقد رد على من قال له: لقد رأيتك من بعيد فظننتك امرأة, ليجيبه برد سريع بقوله: **نعم, وأنا رأيتك من بعيد فظننتك رجلا** .

هذا جانب بديع من استخدام أدب الرد, وصيغة مطلوبة وإن كانت صادمة وقاسية ؛ فالقول من هذا النوع يستوجب الرد بكلمتين لا بقصيدة كاملة قد تأخذ الوقت, وتضيع الفرصة, وشاعر بقيمة المتنبي لا يجد حرجا من استخدام الرد القصير ليضع حدا لنقاش قد يطول.

وتستمر الردود في كتب الأدب وروايات الناس, يَروُونها حباً وتسلية وفائدة , ويحملونها في أذهان لا تنسى وعقول لا تغفل , نقرأ لـ (أبو بكر بن دريد,**1962**م, **44.1**) أن شابّا رأى شيخا ضريرا يحملُ مصباحا في يده في الظلام, فقال له مستهزئا: يا عماه أتحملُ مصباحا وأنت لا ترى ؟ فقال:**أجل, أحمله لمبصر مثلك مخافة أن يصطدم بي,** وكان بلعاءُ بن قيس أبرصَ ,فقيل له: ما هذا بك يا بلعاءُ ؟ قال : **سيفُ الله جلاه.**

ولا يقتصر فن الرد على العرب وحدهم فالروايات عن حكم إجابات الإغريق تملأ كتب العرب وأهل المنطق, كأفضل الشواهد على قيمة الرد في المسائل الجدلية.

فيروي لنا (ابن دريد, **1962**م, **52.1**) أن الإسكندر المقدوني وصل موضعا ليحارب أهله فحاربته النساء، فكف عنهم وعن محاربتهن وقال: " **هذا جيش إن غلبناه لم يكن لنا فيه فخر وإن غلبنا كانت الفضيحة آخر الدهر**".

وقيل لأفلاطون: ما العشق؟ فقال: **حركة النفس الفارغة بغير فكر**, وقيل لفيثاغورس: أي شيء من الأفعال يشبه أفعال الإله؟ فقال: **الإحسان إلى الناس** "وفخروا عنده بالمال وكثرته فقال: " **وما حاجتي إلى المال الذي يعطيه الحظ ويحفظه اللؤم ويهلكه السخاء**".

وقيل لسطراطوثيغوس: إن فلانا شتمك بالغيب، قال: " **لو ضربني بالسياط وأنا غائب لم أبال**"وقيل له: ما تفسير شعر سنجولس؟ فقال: " **إن حفر بئر بقرب قناة يجرى فيها الماء ليس بأمر صعب**".

والشواهد كثيرة في وجه التقارب بين الرد الأدبي والحكمة المعتبرة, لكن هذا لا يمنع وجود الخصوصية لكل منهما تحديدا فيما يتعلق بالرد السريع على طرف اللسان, وعدم الانتظار والمشاورة؛ فتضيع الدهشة في التمعن وترتيب الكلام , والرد يلتقي مع الأمثال أيضا من حيث قدرة عامة الناس على القول الأدبي المؤثر, من دون حاجة للتمتع بالحكمة الكافية ليكون الرد شافيا.

غير أن الردود الأدبية تحمل من الغايات ما يجعلها تتجاوز الرد العادي الظاهر, لتصل إلى مسائل مهمة في العلاقات الإنسانية وتحمل في سطرها البسيط خلاصة الموقف وفصل الخطاب.

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

نلحظ ذلك فيما ذكره (ابن أبي عون,**1996**م, ص **81**) عن امرأة مزيد حين قالت لزوجها وكانت حبلى ونظرت إلى وجهه: الويل لي إن كان الذي في بطني يشبهك , فقال لها : " الويل لي إن كان الذي في بطنك لا يشبهني"

فالردُّ ليس كلمة في حوار عابر, بل أسلوب كامل من التحذير والتنبيه, ونقل المعنى من مجرد تشبيه وفكاهة, إلى شكل جاد من المعاني الكبيرة والمهمة, وإسكات المخاطب وإلهاؤه في قضية أخرى أكثر تنوعا.

وتحمل الردود الأدبية جانبا نقديا مهما, ووظيفة علمية معتبرة , بالإضافة إلى ردود ممتعة لانتقاد السائل والاستفسار المحرج, فقد روى الأبشيهي، في كتابه الباب الثامن : أنه قيل للخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العَروض: ما لكَ تروى الشعرَ ولا تقوله ؟ فقال الخليلُ:"**لأني كالمسَنِّ أشحذُ ولا أقطع**".

وقيل للعجاج : إنك لا تُحسن الهجاء ؟ فقال العجاج :**وهل رأيت بانيا لا يُحسن الهدمَ**, وكذلك فعل حين سئل: مالكَ لا تُطيل الهجاء ؟ قال : " **يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق** ".

وهو هنا يعطي من الرد السريع درسا كاملا لجودة غرض الهجاء وإطالته لا تخدم النص وأعطى للقصر في الهجاء ميزة لم تكن ظاهرة ولا متوقعة, وهي أن التمكن من عنق المهجو هو الغاية ولا حاجة لطول القلادة فهي لا تحكم القبضة ولا تثبت القول.

وقد عرف العرب "الأجوبة المسكتة والمستحسنة كظاهرة لغوية جميلة، ارتبطت بالفصاحة والذكاء وسرعة البديهة، وقد خصص لها شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، في الباب الثامن من كتابه(المستطرف فيكل فن مستظرف) وفيه يروي أن عائشة – رضي الله تعالى عنها – ذبحت شاة وتصدقت بها وأفضلت منها كتفا فقال لها النبي ما عندك منها فقالت ما بقي منها إلا كتف فقالﷺ" **بقيت كلها إلا كتفا** "

وقال عبد الله بن يحي لأبي العيناء كيف الحال قال:**أنت الحال فانظر كيف أنت لنا** فأمر له بمال جزيل وأحسن صلته, وكان عمرو بن سعد بن سالم في حرس المأمون ليلة فخرج المأمون يتفقد الحرس فقال لعمرو من أنت؟ قال:**عمرو عمرك الله بن سعد أسعدك الله بن سالم سلمك الله** ,فقال المأمون:

إن أخا الهيجاء من يسعى معك ... ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا رأيت الزمان صدعك ... شتت فيك شمله ليجمعك

ودفعوا إليه أربعة آلاف دينار قال عمرو وددت لو أن الأبيات طالت, وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندي أأنت سعيد ؟ قال:" **أمير المؤمنين السعيد وأنا ابن مرة** "وقال المأمون للسيد بن أنس: أأنت السيد ؟ قال :" **أمير المؤمنين السيد وأنا ابن أنس** "وقال الحجاج للمهلب وهو يماشيه أأنا أطول أم أنت؟ قال:**الأمير أطول وأنا أبسط قامة**".

وقد يأتي الرد من غير العاقل كدلالة على أن الرد غير متصل بالحكمة المعدة بل يمكن نسجها لتليق بالعقلاء, وإن جاءت على لسان المجانين كما هو الحال مع الأمثال السائرة.

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

يروي لنا(شهاب الدين الأبشهي, ب.ت, 57) أنه قيل لبُهلول المجنون :عد لنا المجانين؟ فقال: " **هذا يطول,ولكني أعدّ لكَ العقلاء** " فهذا القول يتوقف عنده ويأخذ وقته من المعاينة والتدبر وإن كان مصدره بهلول يفترض ألا يؤخذ منه شيء أو يرد.

وقد يرد الحكيم ردا أدبيا يجمع فيه مزايا الحكمة مع قوة الرد وحسن البناء, فقد رأى حكيمٌ رجلا يرمى هدفا وسهامُه تذهب يمينا وشمالا,فقعدَ الحكيمُ في الهدف نفسه,فعُوتبَ في ذلك, فقال الحكيمُ: **لم أرَ موضعا أسلمَ منه.**

(**ويورد الأبشهي**, ب.ت, ص**57**)أن رجلا أعور أراد أنْ يماشيَ رجلا أعمشَ,فقال له الأعمشُ: إن الناسَ إذا رأونا قالوا: أعور وأعمش,فقال له الأعور: ما عليكَ أن يأثموا ونسلم,فقال له الأعمشُ : " **وما عليكَ أنتَ أنْ يسلموا ونسلم !** " وذكِر رجل عند العباس بن الحسن العلوي وكان لا يحبه فقال:" **دعوني أتذوق طعم فراقه** " ويأتي الرد في أفضل صوره حين ينم عن شجاعة وثبات موقف من دون خوف أو استجداء , فيتحول الرد إلى وسيلة إبلاغ ودفاع وصلابة , فقد دخل يزيد بن أبي مسلم, صاحب شرطة الحجاج على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج, فقال له سليمان: قبح الله رجلا أجرك رسنه وأولاك أمانته, فقال يا أمير المؤمنين:**لو رأيتني والأمر لك وهو عني مدبر, فلو رأيتني وهو علي مقبل؛ لاستكبرت مني ما استصغرت, واستعظمت مني ما استعظمت**, فقال سليمان: أترى الحجاج استقر في جهنم ؟ فقال:**يا أمير المؤمنين ,لا تقل ذلك, فان الحجاج وطأ لكم المنابرُ وأذل لكم الجبابرةُ وهو يجيء يوم القيامة عن يمين أبيك وشمال أخيك, فحيثما كانا كان.**

وليس في باب الردود ما يسمى بلغة الأدب في الحوار والرد, أو الحرص على الشكر والتحية ولا يهتم بالوقوع في الذم والتجريح؛فالغاية من البحث هو الوصول إلى رد أدبي في مضمونه الفني لا الأخلاقي, رد يرد الإساءة بما يناسبها, ويدعم السؤال بالذي يشفيه, ويؤكد الحدث حين لا يعيره أحد اهتماما.

من ذلك ما ذكره(**ابن طيفور**, **1908**م, **166,1**)حين تزوج عبد الملك بن مروان أم البهاء بنت عبد الله بن جعفر فقالت له يوماً لو استكت (أي وضعت السواك)فطلقها فتزوجت علي بن عبد الله بن عباس, وكان أقرعا والقلنسوة لا تفارقه, فوجه عبد الملك جارية وقال لها اكشفي رأسه بين يديها, ففعلت الجارية ذلك فقالت: قولي له " **هاشمي أصلع أحب إلي من أموي أبخر**" فأبلغته فقال: ويلي عليها لو علمت لم أطلقها.

ويروى عن جعفر بن يحيى، أنه قصد الأصمعي في منزله، وأمر خادما له بحمل ألف دينار؛ ليصله بها، فلما دخل منزله ورأى وسخ منزله، ورأى في دهليزه حبا مكسورا، أمر الخادم برد الألف دينار، وقال: " **إن لسان النعمة أنطق**

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

من لسانه، وإن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مديحه وهجائه، فعلام نعطيه الأموال إذا لم تظهر الصنيعة عنده وتنطق النعمة بالشكر".

هنا يظهر جليا أن الرد الأدبي هو حصيلة موقف سريع غير متوقع ,ويأتي تفسيرا لتغير السلوك والوجهة والقصد فيصبح الرد المرتجل قطعة أدبية حاكمة وقاعدة سلوك تدرس.

ولا يخلو الرد من تزيين المسائل المرذولة, لتبدو داخل الرد أنها منطقية وتسير وفق عقل مدرك لا عن نفس شحيحة مقترة, فقد روي(**الخطيب البغدادي,1964م, 99,1**)عن مروان بن أبي حفصة أنه كان لا يأكل اللحم بخلا، فإذا قرم أرسل غلامه فاشترى له رأسا فأكله، فقيل له: نراك لا تأكل إلا الرؤوس في الصيف والشتاء، فلم تختار ذلك؟ فقال: **نعم، الرأس أعرف سعره، فآمن خيانة الغلام, ولا يستطيع أن يغبنني فيه، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه، إن مس عينا أو أذنا أو خدا وقفت على ذلك، وآكل منه ألوانا، آكل عينه لونا، وأذنيه لونا، ودماغه لونا".**

ومن طرائف الردود أيضا ما أورده (**الخطيب البغدادي,1964م, 99.1**)أن رجلا من البخلاء قال لغلامه: هات الطعام، وأغلق الباب .فقال: **هذا خطأ، بل أغلق الباب، واتِ بالطعام ".**

وقد يأتي الرد بعيدا جدا عن كونه أدبيا لكنه يفتح الباب أمام سلوك ساخر وغريب, يدلل على نفس ممسكة ومقترة.

والأحاديث فيها كثيرة لا تعد نأخذ منها تلك الطرفة عند(**البغدادي, 1964م, 89.1**) ما حكاه ناجية بن عبد الله البصري، قَالَ:كان عندنا بالبصرة رجل ميسر، وكان بخيلا على نفسه وعلى عياله، فدعاه بعض جيرانه، فوضع بين يديه **طباهجة ببيض** (**وهي كلمة فارسية معربة تعني ضرب من قلي اللحم – لسان العرب**) فأكل فأكثر، وجعل يشرب الماء؛ فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت، فجعل يتلوى، فلما أجهده الأمر وخاف الموت على نفسه، بعث إلى جار له متطبب، فدخل عليه فقال: ما حالك؟ قَالَ: أكلت طباهجة ببيض، وشربت ماء كثيرا، وقد نزل بي الموت, فقال: لا بأس عليك، قم فتقيأ ما أكلت وقد برئت,فقال: **أموت ولا أتقيأ طباهجة ببيض أبد ".**

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

فتفضيل الموت على ترك الطعام يدعو للسخرية من امتهان النفس, ويبين أن التمسك بالطعام عند البخيل مقدم على الصحة الجسمية.

ومن أبرز الردود تلك التي تأتي نظما سريعا قائما على تحد آخر غير تحدي الإجابة, وهي نظم الرد على قواعد شعرية صعبة والحرص على أن تكون مفحمة ووافية وقد لا نجد الكثير من هذا النوع الذي أظن أن فيه الكثير من الاستعداد المسبق له والتنبؤ بالسؤال والاستعداد له , أو لعله نظم مؤجل لأي طارئ يستلزم قوله فيظهر للناس أنه رد فوري وقوة بيان وإمكانات فذة, من ذلك ما يرويه (**الأبشهي, ب.ت, ص57**) من أن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له هيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف على قوله:

معن بن زائدة الذي زادت به ... شرفا على شرف بنو شيبان

فقال كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلنا ... بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه ... من وقع كل مهند وسنان

فقال أحسنت والله يا معن وأمر له بالجوائز والخلع.

ووفد ابن أبي محجن على معاوية فقام خطيبا فأحسن فحسده معاوية وأراد أن يوقعه فقال له أنت الذي أوصاك أبوك بقوله:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... تروى عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنني في الفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

فقال بل أنا الذي يقول أبي:

لا تسأل الناس ما مالي وكثرته ... وسائل الناس ما جودي وما خلقي

أعطي الحسام غداة الروع حصته ... وعامل الرمح أرويه من العلق

وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض ... وأكتم السر فيه ضربة العنق

ويعلم الناس أني من سراتهم ... إذا سما بصر الرعديد بالفرق

فقال له معاوية أحسنت والله يا ابن أبي محجن وأمر له بصلة وجائزة.

ويروي(**الأبشهي, ب.ت, ص57**)عن شريك بن الأعور على معاوية وكان دميما فقال له معاوية: إنك لدميم والجميل خير من الدميم, وإنك لشريك وما لله من شريك, وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور, فكيف سدت قومك؟

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

فقال له: إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب, وإنك لابن صخر والسهل خير من الصخر, وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب, وإنك لابن أمية وما أمية إلا أمة صغرت, فكيف صرت أميرا للمؤمنين ؟

ولعل من أبرز القصائد المصنوعة والتي تقترب من النظم المؤجل , الذي يصلح أصلا في نص كامل من دون سؤال , ويمكنه الدخول في قصة النص من دون حاجة إلى سرعة بديهة أو رد مفحم , مثل الذي نجده في " **شرح ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي, 1994م**" أن أبا تمام مدح بعض الأمراء فلما بلغ قوله:

إقدامَ عمروٍ في سماحةِ حاتمٍ ... في حلمِ أحنفَ في ذكاءِ إياسِ

فأنكر بعض الحاشية عليه ذلك وقالوا مازدت على أن شبهت الأمير بصعاليك العرب , فرد أبو تمام قائلا

لا تنكروا ضربي لهُ منْ دونهِ ... مَثَلاً شَرُوداً في النَّدى والبَاسِ

فاللَّهُ قد ضَرَبَ الأقلَّ لِنُورِهِ ... مَثَلاً مِنَ المِشْكَاةِ والنبْرَاسِ

ويروي(**الأبشهي, ب.ت, ص57**) أيضا أن ابن عبد المنّان دخل وهو ثمل على السلطان أحمد المريني عشيّة, فصبّحه, فنظر السلطان إليه نظر منكر, وقال له: أيّ وقت هذا؟ وأي معنى للصباح فيه؟ فأفاق من سكره, وأنشد ارتجالاً:

صبحته عند المساء فقال لي: ... ماذا الصباح؟ وظنّ ذاك مزاحا

فأجبته: إشراق وجهك غرّني ... حتى توّهمت المساء صباحا

ولكن بعض الردود الشعرية يمكن لها أن تكون وليدة اللحظة وغير قابلة للإعداد ولا يمكن أن توضع إلا في دائرة الرد اللحظي والنابع عن قدرة فورية ولسان حاضر وفي وقت ضيق.

ففي (**ابن طيفور, 1908م, 189.1**)قال الأصمعي دخلت المقابر فإذا أنا بامرأة تنوح على زوجها وهي سافرة فلما رأتني غطت وجهها ثم كشفته فقالت:

لا صنت وجهاً كنت صائنه ... أبداً ووجهك في الثرى يبلى

يا عصمتي في النائبات ويا ...ركني القوي ويا يدي اليمنى

ومن هذا أيضاً قول بعضهم في ابن له ازدراه رجال، فمنعهم من نعمه، وقد أغاروا عليها:

رأوه فازدروه وهو خرق ... وينفع أهله الرجل القبيح

وللسموأل في أن قلة العدد ليس عيباً ولا سبة:

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل

يقول أبو عبيدة بن المثنى لم يزل الفرزدق وجرير يتهاجيان حتى هلك الفرزدق قال أبو عبيدة: فحدثني أيوب بن كسيب، قال" بينا جرير في مجلس بفناء بيته، إذا نبأ راكب، فلما دنا قال له جرير: من أين الراكب؟ قال: من العراق. قال: فهل كان من حدث. قال: لا، إلا أني يوم شخصت، فرأيت جنازة الفرزدق، وسمعت الناس يقولون: هذا النعش نعش الفرزدق. فقال جرير:

هلكَ الفرزدقُ بعدَ ما جَدّعتُهُ ... ليتَ الفرزدقُ كان عاشَ قليلا

ثم أسكت ساعة مطرقاً، فظنناه يقرض، فدمعت عيناه، فقال القوم: سبحان الله يا أبا حزرة، ما يبكيك؟قال: **بكيت لنفسي، والله إن بقائي خلافه لقليل، إنه قل ما كان اثنان قرينان، أو مصطحبان، أو زوجان، إلا كان أمد بينهما قريباً** ثم أنشأ يرثي الفرزدق:

فُجعنا بحَمّال الدّياتِ ابنِ غالِبٍ ... وحامِي تميمٍ عِرضِها والمراجِمِ
بَكيناكَ حدثانَ الفِراقَ وإنما ... بَكيناكَ إذ نابتْ أمورُ العَظائِمِ
فلا حملت بعدَ ابنِ ليلى مَهيرَةٌ ... ولا شُدّ أنساعُ المِطيّ الرواسِمِ

بهذا يمكن القول إن الرد الأدبي له أصناف كثيرة وأغراض متعددة, ذات أصل واحد مع تغير الأنفس والرغبات يصيب بعضها شغاف النفس , ويميل غيرها إلى الإسفاف والتودد , هذا أدبيا لا يغير من قيمة الكلام وإن غير وقلل من مكانة صاحبها , وصدق العاطفة في قول جرير:

هلكَ الفرزدقُ بعدَ ما جَدّعتُهُ ... ليتَ الفرزدقُ كان عاشَ قليلا

هو مساعد حقيقي لشكل الرد في صورته الطيبة المرتجلة والكلمة الأدبية في نطاق ضيق مع قوة في البيان وشدة الخطاب.

خاتمة

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

لعلنا هنا نقع في مأزق الاستشهاد بالنصوص, فيغلب الذوق على القيمة الفعلية للرد الأدبي وتختلف الآراء حول أهلية بعضها وقصور بعضها الآخر؛ لكننا اجتهدنا قدر ما استطعنا في جلب الأقوال المعتمدة في كتب السلف, فهي الأقرب لذوقهم والأفصح في خطابهم.

ومما يمكن قوله إن البحث يسعى لإثبات مكانة للرد الأدبي بين صنوف الآداب وأغراضها , ومحاولة إضافة الجديد لمن سبق, فكل الردود هي صورة لذلك الزمن , والحديث المباشر ينقلنا إلى عمق ذلك المكان ويصور لنا أحوال الناس ومواضعهم ومآسيهم وأفراحهم ويكاد بعضها يرسم شكل الشخص من خلال قوله وشدة تأثيره.

لذا آمل أن يتحول هذا البحث إلى دراسة كاملة تعطي الرد حقه من الشواهد لا تحدده الصفحات بحد ولا تعدها بعدد.

أرجو أن أكون موفقا في ترتيب ذلك وتصنيفه وتعريف الناس به من الجانب النقدي والمنهجي .

المراجع :

القرآن الكريم – آل عمران 119 , الزمر 8

1. ابن أبي عون إبراهيم بن محمد (1996م) الأجوبة المسكتة , ت:د مي أحمد يوسف, دار عين, للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية, القاهرة, ط 1.
2. أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور(1908م) بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن, ت: بركات يوسف, المكتبة العصرية –ط1, جزء 1.
3. أبو بكر محمّد بن الحسن ابن دريد(1962م), المجتبى, دائرة المعارف العثمانية, ط 2,جزء 1.
4. أبو حيان التوحيدي (1942), الإمتاع والمؤانسة, ت : أحمد أمين وأحمد الزين – طبعة مصر –ج 2.
5. أبو حيان التوحيدي(1964م),الصداقة والصديق, ت: د. إبراهيم الكيلاني, دار الفكر المعاصر, دمشق.
6. أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري(1998م) نقائض جرير والفرزدق, ت: محمد إبراهيم,المجمع الثقافي , أبو ظبي , ج 3.

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©

7. أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (2001م), الإعجاز والإيجاز, ت: إبراهيم صالح, دار البشائر – دمشق – ط 1.

8. الخطيب البغدادي (1964م),البخلاء, تحقيق: د. أحمد مطلوب و د. خديجة الحديثي و أحمد ناجي – ط 1

9. الخطيب التبريزي (1994م), شرح ديوان أبي تمام, قدم له ووضع فهارسه: راجي الأسمر, دار الكتاب العربي, بيروت, جـ1,ط 2.

10. شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي(1996م), سير أعلام النبلاء, ت: شعيب الأرنؤوط, مؤسسة الرسالة , ط 11, جـ1.

11. شهاب الدين أحمد الأبشهي (ب. ت), المستطرف في كل فن مستطرف, مكتبة محمود توفيق, القاهرة.

12. صالح بن جناح اللخمي (1992م), الأدب والمروءة تحقيق وتعليق: قسم التحقيق بالدار, دار الصحابة للتراث, ط1.

13. عائشة عبد الرحمن, بنت الشاطئ, (1970م)قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر, دار المعارف, القاهرة, ط 2.

14. عبد الله بن الْمَقَّفعِ (ب. ت), الأدب الصَّغِيرُ, تعليق: وائل بن حافظ بن خلف, ط1,جـ1.

15. عبدا لكريم النهشلي القيرواني (1933م), الممتع في صناعة الشعر,ت: محمد زغلول سلام,جامعة الإسكندرية,منشأة المعارف, مصر.

16. محمد بن عبدالملك ابن هشام (ب. ت)السيرة النبوية, مكتبة عمر الخشاب, المطبعة الخيرية, مصر . , جـ 4.

17. منيرة فاعور(2004م), بلاغة الأجوبة المسكتة (الأسلوب الحكيم نموذجا), منشورات كلية الآداب, جامعة دمشق, م30 ,العددان 3,4.

.The Author(s). This open access article is distributed under a CC BY-NC 4.0 license ©